عبقرية الفشل الفلسطيني

د. محمد عبد العزيز ربيع

كان لوقوع الانتفاضة في عام 1987 في الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ عام 1967 أثرا بالغ الأهمية بالنسبة للقضية الفلسطينية على كافة الساحات والمستويات، الوطنية والعربية والدولية. فمن ناحية، كشفت تلك الانتفاضة الوجه القبيح للدولة اليهودية التي لم تتردد في استخدام القوة العسكرية وأقسى درجات العنف لقتل الأطفال وتكسير أيديهم التي كانت تحمل الحجارة مطالبة بالحرية. ومن ناحية ثانية، أظهرت الانتفاضة عمق المأساة الفلسطينية ومدى الظلم الذي ألحقه الاحتلال الصهيوني بالشعب الفلسطيني، وذلك إلى جانب الكشف عن رغبة الفلسطينيين واستعدادهم للتوصل لحل سلمي مع الدولة اليهودية على أساس الانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة وإقامة دولة فلسطينية فيها. كما أدت الانتفاضة أيضا إلى بلورة قيادة شعبية فلسطينية تتمتع بالذكاء والمبادرة وتصر في الوقت ذاته على الاعتراف بشرعية منظمة التحرير الفلسطينية وتمثيلها للشعب الفلسطيني. وفي ضوء التعاطف الكبير الذي أبداه المجتمع الدولي والرأي العام العالمي مع الشعب الفلسطيني وتأييده لنضاله العادل من أجل إنهاء الاحتلال وتحقيق السلام، غدت الحجارة وأطفال الحجارة رمزا من أهم رموز الحرية في العالم، وجزءا من ضمير المجتمع الدولي المناهض للظلم والتفرقة العنصرية.

وبينما كانت إسرائيل تعيش في أزمة كبيرة وتدخل القيادة الإسرائيلية في دوامة التردد والقلق المتزايد والضياع بسبب الانتفاضة وردود فعلها على الساحة الدولية، سارعت القيادة الفلسطينية إلى إنقاذها من خلال اتفاقية أوسلو التي لم تكن سوى إقامة إدارة فلسطينية لاحتلال إسرائيلي متواصل، أي إقامة إدارة فلسطينية تتمتع بالشرعية لإدارة شؤون الاحتلال نيابة عن إسرائيل. ولقد ساعدت تلك السلطة من حيث تدري على تسهيل مهمة إسرائيل في مصادرة الأراضي الفلسطينية وبناء المزيد من المستوطنات في أراضي الضفة الغربية وغزة دون التنازل عن أي شيء في المقابل. وعلى مدى عشرة سنوات متتابعة بقيت السلطة الفلسطينية تراوح في مكانها دون تحقيق أي تقدم على طريق الاستقلال، أو إنهاء الاحتلال، أو حتى وقف عمليات الاستيطان. وفي الواقع كان اتفاق أوسلو أكبر خطيئة ترتكبها منظمة التحرير الفلسطينية بحق الشعب الفلسطيني حيث عكست مدى جهل القيادة الفلسطينية بحقيقة الكيان الصهيوني وتقصيرها اللامتناهي في التعامل معه، وهذه صفات عبقرية ليس من السهل توفرها في أناس من

المفروض أنهم درسوا عدوهم لأكثر من خمسين سنة متتالية. وبينما كانت إسرائيل تقوم بإذلال الشعب الفلسطيني والاستيلاء على أراضيه واهانة قياداته واعتقالهم ومعاملتهم كحشرات وأحيانا قاذورات تستوجب التخلص منها، فشلت تلك القيادة حتى في كشف مدى تجاهل إسرائيل للاتفاقيات التي وقعتها مع السلطة الفلسطينية.

وحتى بعد أن تأكدت القيادة الفلسطينية من انحياز الوسيط الأمريكي بالكامل لبني جنسه من اليهود، فإن تلك القيادة رفضت نصائح البعض بالعمل على استبداله بوسيط آخر من خلال الطلب من الرئيس كلينتون إرسال فريق جديد يحل محل الفريق الذي رأسه دينيس روس لحوالي عشر سنوات متتالية، قام خلالها بتدمير عملية السلام تدميرا شاملا باعتزاز خدمة لمخططات الدولة العبرية. وبينما كانت تتعثر عملية السلام وتدخل غرفة الإنعاش في حالة احتضار، لم تجد القيادة الفلسطينية لديها ما يكفي من الشجاعة لطرح مبادرة سلام واقعية تتحدى من خلالها الوسيط الأمريكي والمجتمع الدولي والمؤسسة الصهيونية.

لكن رغم تلك الإخفاقات الكبيرة، لا بد من الاعتراف بأن القيادة الفلسطينية حققت انجازات عبقرية على الساحتين الداخلية والخارجية. وفي مقدمة تلك الانجازات القيام بتشكيل عدة أجهزة أمنية متصارعة لحفظ التوازن فيما بينها، وغض النظر عن تصرفات بعض عناصرها التي فاقت البلطجة ودخلت حيز الإجرام، والعمل بوعي ودون وعي على مأسسة الفساد في كافة أجهزة السلطة، والنجاح الباهر في استبعاد وإبعاد كل من لديه قدرة على التفكير العلمي والرغبة الواعية والإخلاص في خدمة الوطن والشعب والقضية، وتشويه صورة الفلسطيني التي تميزت بالجد والأمانة والإخلاص في العمل لتصبح صورة تفوح منها روائح الفساد المالي، والغباء الإداري، والاستزلام والتبعية العمياء لقيادات أنانية غارقة حتى أذنيها في لعبة التوازنات السياسية والفئوية والفساد على حساب ما عداها من قضايا وطنية وإنسانية.

وحين تسلم أبو مازن مقاليد الحكم نتيجة لصدفة تاريخية، كان المجتمع الدولي والإسرائيلي والعربي الرسمي في انتظاره مرحبا بقدومه باعتباره رجل سلام وشخصية ديناميكية. إلا أنه كسابقه لم يقم بفعل ما من شأنه إيقاف الصراع بين الأجهزة الأمنية، ولا السيطرة على الفلتان الأمني، ولا وضع حد للفساد المالي والإداري، ولا توحيد صفوف حركة فتح التي ينتمي إليها. كما أنه فشل في تحقيق تقدم على طريق السلام والأمن والاستقلال لشعبه، مما جعله يغرق في بحر من المتاهات التي حملته إلى الاستسلام للقضاء والقدر، القضاء الإسرائيلي والقدر الأمريكي. إضافة إلى ذلك أهمل أبو مازن نصائح الكثيرين

بوجوب تغيير بعض رموز الفساد والفوضى، واستبدال بعض الوجوه التي حملت عبء الفشل في المراحل السابقة، والعمل على استبدال ثقافة المقاومة المسلحة الكارثية بثقافة الصمود. ولقد كان من نتائج ترك الأمور على حالها من فوضى أمنية، وتشتت فئوي، وفساد مالي وإداري، وعجز سياسي واقتصادي تمهيد الطريق لفوز حركة حماس بأكثرية مقاعد المجلس التشريعي في انتخابات ديمقراطية شرعية، وبالتالي تشكيل حكومة أدت إلى تعميق عزلة الشعب الفلسطيني ومضاعفة معاناته في ظل المقاطعة الدولية، وإعطاء الدولة اليهودية المزيد من المبررات للتمادي في تجويع الشعب الفلسطيني والتنكيل به ومصادرة المزيد من حقوقه الإنسانية والسياسية. ولقد نتج عن ذلك دخول فتح في صراع مع حماس على سلطة لا وجود لها أصلا، وصولا إلى تجزئة الوطن الصغير المحتل والمتآكل، وتقسيم الشعب الذي يعاني الفقر والمرض والمهانة إلى كيانين يتنافسان على المرتبة الأخيرة في البؤس والعجز في العالم. وهكذا استطاعت القيادات الفلسطينية، الفتحاوية والحمساوية وحلفائها في تدمير كل ما بناه الشعب الفلسطيني على مدى ستين عاما من الكفاح والنضال والتعلم والتضحيات الجسيمة، والقضاء على وحدته السياسية والثقافية والنضالية، وتحويله في أعين العالم من شعب يرمز للحرية والكرامة والتضحية إلى قطعان من الفاسدين والأنانيين والفاشلين... كل ذلك بفضل عبقرية الفشل التي تميزت بها القيادات الفلسطينية.

للنشر يوم الثلاثاء 24-7-2007

د. محمد عبد العزيز ربيع

www.yazour.com

professorrabie@yahoo.com